بداية العصر الراشديّ:

بدأ العصر الراشدي بتولّي أبي بكر الصديق رضي الله عنه الخلافة سنة (11هـ)، بعد أن بايعه المسلمون بيعة عامّة وخاصّة. أمّا عصر صدر الإسلام، فبدأ حقيقة وفعلاً بوصول النبيّ، ﷺ، إلى المدينة المنوّرة، وإقامة الدولة. غير أنّ هذا لا يعني أنّ التحوّل في الأدب لم يظهر قبل ذلك؛ فنزول القرآن الكريم في مكّةَ على مدار ثلاثَ عشرةَ سنة كان مؤشّرًا على بدء خصائصَ جديدة، وسِماتٍ موحية بالأدب لها لونٌ من طابع خاصّ.

وبنزول القرآن الكريم آثار عقول العرب وبدَّل مشاعرهم؛ إذ جعلهم يعيدون حساباتهم في أمور لغتهم ونصوصها حين بهرهم بأسلوبه ونظمه. ولّما لم يستطيعوا مجاراته أخذوا في كيل الاتهامات إليه وإطلاق الأوصاف عليه؛ فقالوا إنه شعر، وقالوا أساطير الأولين. ولّما لم ينالوا منه شيئًا انقلب ذلك إلى النيل من رسول الله، ﷺ؛ فقالوا إنه مجنون فقد ذكر القرطبي. (قال الملأ من قريش وأبوجهل:[1] قد التبس علينا أمر محمد، فلو التمستم رجلاً عالمًا بالشعر والكهانة والسحر فكلمه ثم أتانا ببيان من أمره؛ فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الكهانة والشعر والسحر وعلمت من ذلك علمًا لا يخفى عليّ إن كان كذلك . فقالوا: إيته فحدثه. فأتى النبي ﷺ فقال له: يا محمد! أنت خير أم قصيّ بن كلاب؟ أنت خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ أنت خير أم عبدالله؟ فبم تشتم آلهتنا، وتضلل آباءنا، وتسفّه أحلامنا وتذمّ ديننا؟ فإن كنت إنما تريد الرياسة عقدنا إليك ألويتنا فكنت رئيسنا ما بقيت، وإن كنت تريد الباءة زوّجناك عشر نساء من أي بنات قريش شئت، وإن كنت تريد المال جمعنا لك ما تستغني به أنت وعقبك من بعدك، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًّا من الجن قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في طلب ما تتداوى به أو

(1) القرطبي: 15/ 338.

تُغلب فيك. والنبي ﷺ ساكت، فلما فرغ قال: " قد فرغت يا أبا الوليد"؟ قال: نعم. فقال: " يا بن أخي اسمع" قال: أسمع. قال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٨﴾ ۞قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴾ فوثب عتبة ووضع يده على فم النبي ﷺ، وناشده الله والرحم ليسكتنّ، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش فجاءه أبو جهل؛ فقال: أصبوتَ إلى محمد؟ أم أعجبك طعامه؟ فغضب عتبة وأقسم ألا يكلم محمدًا أبدا، ثم قال: والله لقد تعلمون أني من أكثر قريش مالا، ولكني لمّا قصصت عليه القصة أجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر؛ ثم تلا عليهم ما سمع منه إلى قوله: (مثل صاعقة عاد وثمود) وأمسكت بفيهِ وناشدته بالرّحم أن يكُفّ؛ وقد علمتم أن محمدًا إذا قال شيئًا لم يكذب، فوالله لقد خفت أن ينزل بكم العذاب؛ يعني الصاعقة).

من هذه القصة وما سيأتي على نسقها، يظهر أنّ القرآن أحدث خلخلة في عقول المتلقين ونفوسهم؛ ليجلب انتباههم ويجذبهم إلى لغته وأسلوبه وما يحمل في آياته من أفكارٍ وعقائدَ. ويُلحظ ذلك في السُّوَر والآيات سابقة النزول، كما يُلحظ في موسيقا إيقاعها

اللفظي وجرسها الحادّ أحيانًا والهادئ أخرى. وعندما عظمُ عليهم سماع القرآن جَهارًا، وعرفوا أنه إنْ تابع معهم الإلقاء تابعوا معه الاستماع، ورأوا أنفسهم لايستطيعون ردّه، ولا الوقوف أمامه، أخذوا في اتّباع أساليبَ أخرى من التلوّن في الصدّ عنه والانصراف أحيانًا بالتصفيق وإثارة الضوضاء، وأحيانًا بصمّ الآذان عن السماع، فجاءهم من حيث لم يحتسبوا، ودخل عليهم بلون جديد أرهف أسماعهم، فقال عنهم مصوّرًا تآمرهم على القرآن الكريم وسماعه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦ ﴾ (سورة فصلت)، عند ذلك لمّا رأى انصرافهم ولغوهم حين يُتلى عليهم، أنزل الله - سبحانه وتعالى- ما بهرهم وأذهل عقولهم واخترق أسماعهم على الرّغم من لغوهم، فجاءت فواتح السور بجرسها القويّ وصدى صوتها الذي يخرق الآذان إلى القلوب، فقال سبحانه: الم، المص، كهيعص، ص، حم، ق، وهكذا.

ولقد وصل الأمر بهم إلى أنهم كانوا يتسللون خفية في جُنح الظلام لسماع آيات الله، سبحانه وتعالى، وفي ذلك روى أصحاب السير أنّ جمعًا من زعمائهم وصناديدهم أخذ كلٌّ منهم طريقه إلى بيت النبيّ، ﷺ، مستترًا بظلام الليل ليستمع منه إلى بعض الآيات وهو يتلو في بيته، ويغرق في سحر بيان القرآن الكريم وجمال ألفاظه حتى ينكشف الصبح وينبلج نورُه، فيواري كلٌّ منهم نفسه وينحدر حذرًا من أن يراه أحد، فإذا بالطريق تجمعهم فيندهش كلٌّ من فعله وفعل صاحبه، فيتعاهدون على ألا يرجعوا ثانية. فكيف لو رآهم ضعفاء الناس وهم يتسارعون لسماعه ويفاجؤون في الليلة الثانية يتكرّر رجوعهم إلى السماع.[1]

(1) سيرة ابن هشام: 1/ 233- 234.

ويدلّل تهافتُهم على سماعه على اختلاف مكانتهم وثقافتهم أنهم كانوا يهرعون لسماع أبي بكر في قصّة ثانية معَه حين كان يقرأ في مسجد داره على طريقهم، فيشرطون عليه أن يقرأ خفية خوفًا من انجراف خاصّتهم قبل عامتهم إلى سماعه.(1)

وتأتي قصّة ابن مسعود في جهره بالقرآن فلا يجدون دفعًا لقراءته إلا أن يوجعوه ضربًا، وينهالوا عليه بأيديهم وألفاظهم محاولة لإسكاته وقطع قراءته.(2)

إنّ تلك الشواهد والأحداث تؤكّد مدى وقع القرآن الكريم عليهم، وتدلّ على شدّة تأثيره في عقولهم ونفوسهم ومدى قناعتهم واستسلامهم أمامه بقلوبهم، لكنهم آثروا التعنّت على القناعة والسخط على الرضى، وتراث الآباء وتقاليدهم على الحقّ الساطع؛ رعاية لمصالحهم، وكِبرًا في نفوسهم لا حدود له، حتى رُوي عن أحدهم من شدّة كِبْرِهِ وتعاليه أن عَلِقَ سهم مسموم في طرف ثوبه وبقي ينخز في جسده، ويأبى أن ينحني وينظر إليه زهوًا بنفسه أن ينحني أو يطاطئ رأسه أمامهم حتى أصابه السُّمُّ فهلك.(3)

ولعلّ ما يؤكّد كِبرَهم وعِنادهم أنّ مجموعة من أسيادهم كانوا يردّدون في كلّ حادثة: ماذا تقول عني العرب؟

حتى أبو طالب الذى حمى رسول الله صلى الله عليه وسلم ووقف مدافعًا عنه، لم يرضَ أن يدخل في دين الله رعايةً لموروث الآباء والأجداد، فكان آخرُ قوله على دين عبد المطلب. كما ذكر البخاري في صحيحه.(4)

(1) نور اليقين في سيرة سيّد المرسلين: ص58.

(2) سيرة ابن هشام: 1/ 232.

(3) انظر القرطبي: 10/ 62.

(4) صحيح البخاري: حديث رقم: 3884، 2/ 627.

أثرُ القرآن الكريم في اللغة والأدب

نزل القرآن الكريم فأعجز العرب قاطبة، وهم أهل اللسان العربيّ المبين، فضلاً عن أنه معجز للبشريّة وللخلق جميعًا، ولكن العرب لهم خاصيّة بذلك؛ حيث إنهم بلغوا مرتبة كبيرة ومكانة عالية في اللغة والفصاحة والبلاغة، وصلوا بها إلى القمّة والنضوج، وكانوا يظنّون أنّ لا أحد يدانيهم في هذا الميدان، خاصّة في صروف القول وأفانين اللغة وضروبها، فكان صغيرُهم وكبيرهم، وسيّدهم وعبدهم، وشريفهم ووضيعهم، متفوّقًا في اللغة، أكثرُهم قال الشعر وجرى على لسانه، وتفنّن في ضروب النثر واستخدام تصاريف القول والصور الفنيّة.

وربّما ساعدهم في ذلك طبيعة الحياة اليوميّة التي كانوا يعيشون والبيئة؛ فالناقة والنخيل معاشهم وقوتهم؛ إذ الناقة رفيقتهم ورصيد ثروتهم، ترعى الفيافي والقفار من غير راعٍ أو سائس، تَرِدُ المياه فتشرب، وترعى الشوكَ والعشب، يحتلبون منها في كلّ وقت، وينحرون ويأكلون، لا تخاف ذئبًا ولا وحشًا، أمّا النخلة وثمرها فطعامهم الدائم، يخزّن ويدّخر لُمَدٍ طويلة، ليس في حاجة إلى كبير رعاية وتحسين أساليب زراعة وعناية، يأكلونها بُسرًا، وبلحًا، ورطبًا، ويدّخرونها تمرًا، وأمّا الصّحارى والبوادي فهي الفراغ الذي يحيط بهم. وعليه، فقد ولّد ذلك كلّه لديهم فراغًا كبيرًا انصرفوا فيه إلى التبارز في القول والمسامرة والتنافس في الكلام، ونظم الشعر وجودة البيان، فأدّى ذلك إلى التناحر أحيانًا في النِّتاج الأدبيّ من نثر وشعر، وانصرف جلُّ همّهم وعنايتهم إلى فنّ القول وجودة التعبير، وعمّق لديهم معاني اللغة، وزاد البعد الإنسانيّ لديهم، فنظروا بعمق إلى الأمور؛ نظرة تولّدت من طول التأمّل، والنظر إلى مظاهر الكون، فأوجد ذلك عندهم تصويرًا بليغًا في كلامهم، بل في بُعْدِ نظرتهم بُعدًا فلسفيًّا قلّما تجده عند غيرهم، وكسوا تلك النظرات

بألفاظ رائعة راقية جميلة، وصوّروها بصور من التشبيهات والتمثيل غاية في الدّقة والروعة والإتقان؛ فتلاقى عمق الفكرة وفلسفة الأفكار بأكسية الألفاظ بدرجة عالية من البلاغة والفصاحة؛ فهدوء الصحراء وسكونها ورّث عندهم أُذُناً موسيقيّة مُرهفة، فكان لموسيقا القول وجَرْس الألفاظ ووزن الشعر بالغُ الأثر في إحساسهم بالقول وشدّة وقعه عليهم، وكان للكلمة في نظرهم ميزان ومكان؛ فجاءت أشعارهم وألفاظهم موسيقيّة عذبةَ الإيقاع في النثر والشعر على السواء، واستمزجوا الألفاظ الجميلة العذبة واستوحشوا الخشنة الموحشة.

فعلى هؤلاء نزل القرآن الكريم في الوقت الذي كانوا يتأمّلون مشكلاتِهم التي يلقونها في حياتهم، ممّا ولّد عندهم بُعدًا إنسانيًا ارتقى بأدبهم إلى الأدب العالميّ الإنسانيّ.

ولعلّ ما يؤكّد عمقهم وبُعد نظرهم وفكرهم أنّ القرآن الكريم خاطبهم بهذه العظمة من القول وفخامة الأفكار في الوقت الذي نضجت فيه عقولهم وزاد تأمّلهم إلى درجة تهيّأوا فيها لتلقي كلام الله سبحانه وتعالى، وكلام النبوّة الشريفة؛ فلفت القرآن الكريم نظرهم إلى حقائقَ غابت عن أذهانهم لطول الألف والعادة من خلق السماوات والأرض والجبال والأنهار والبحار والليل والنهار وحقيقة خلق الإنسان، فأكثر الآيات تنتهي بِـ (أفلا تعقلون، أفلا تذكرون، لعلّهم يتفكّرون)، أو في بدايتها (قل سيروا في الأرض فانظروا، أو لم يروْا) وهكذا ليعيد لهم بُعد نظرهم في حقائق ذهلت عنها عقولهم.

لذلك يُعَدّ نزول القرآن الكريم مرحلة جديدة في اللغة على كلّ مستوياتها؛ فبعد أن هُذّبت هذه اللغة تهذيباتٍ كثيرة من عهد إسماعيل -عليه السلام- إلى سوق عكاظ، مرورًا بالأسواق الأدبيّة العامة التي أصبحت تسود الجزيرة العربيّة إلى أن بلغت اللغة أوجها في أدائها وأغراضها وصورها وتوسّعها، حتى أخذ المتحدّثون بها يظنّون يقيناً أن لا أحد يساويهم في اللغة وفنونها وتصريف القول فيها والتلوّن في أساليب خطابها.

عند تلك الغاية نزل القرآن الكريم، فكان له الأثر الأبلغ في اللغة وتوسّعها وتوسيعها واتّساع دَلالتها ومرامي ألفاظها، وكان تأثيره يدور في أربعة محاور رئيسة، هي:

أولاً- الألفاظ والتركيب: استخدم القرآن ألفاظًا وتراكيبَ من لغتهم ولسانهم، إلا أنها جاءت في حُلّة جديدة لم يعهدوها من قبلُ، مثل قوله تعالى:﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ ﴾ (الإسراء: 24)

وقوله تعالى: ﴿ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ ﴿٧﴾ ﴾ (النحل)

وقوله تعالى: ﴿ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ ﴾ (البقرة: 206)

وقوله تعالى: ﴿ وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَ ﴾ (البقرة: 205)

وقوله تعالى:﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖ ﴾ (يوسف: 18)

ثانيًا: توسيع دَلالات بعض الألفاظ والمصطلحات: مثل الصلاة التي كانت تعني الدعاء، والزكاة التي كانت تعني النماء أو الطهارة، والحجّ التي كانت تعني الزيارة، والإيمان التي كانت تعني التصديق، والكفر التي تعني الجحود، والضلال التي كانت تعني الذّهاب والنسيان، والنفاق التي تعني النفق حجر اليربوع.

ثالثًا: توسيع النواحي الفكريّة الثقافيّة: مثل فكرة التوحيد، والألوهيّة، والعقيدة، والموت، والبعث، والنشور، والحِلّ، والحرم، والكبائر، والفتنة، والروح، والهدى. وكذلك حقيقة وجود الإنسان، والموت، وحقيقة الحياة والآخرة والدنيا.

رابعًا: ضرب الأمثال لتقريب الصورة وتوضيح المُراد، وجلب نظر المتلقين، كقوله تعالى:

﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗ ﴾ (البقرة: 171)

﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖ ﴾(البقرة:261)

﴿كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗا﴾(العنكبوت:41)

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَث﴾ (الأعراف: 176)

نزل القرآن الكريم على قوم هذه صفاتهم وثقافتهم، عقول استوت نضوجًا ونبوغًا، مرهفةٌ أحاسيسُهم، تسحرهم اللفظة وتأخذ بمجامع نفوسهم، وتأسر لُبَّهم العبارةُ فيطربون لجمالها، وينتشون لروعة البلاغة والفصاحة، تؤثر فيهم الكلمة أو الشطرة من الشعر، فتحوّل أنظارهم وتسيّر مجرى حياتهم. نزل القرآن الكريم عليهم وهم أشدّ ما كانوا تأثرًا بالأدب والقول، بعد أن أقاموا أسواقًا بضاعتُها الكلام والشعر والنثر والخُطَب، يعقدون فيها مجالس القضاء والنقد والفصل بين الشعراء والخطباء؛ وبذا لاقى القرآن الكريم أقوامًا تهيّأوا لذلك على الرّغم من معارضتهم له أولاً، لكنهم عندما خضعوا له عاجزين أثمر فيهم وأينع واخضرّ وأورق، وأخرج شطأه، وآتى أُكُلَه وثمارَه؛ فسطّروا نماذجَ وأمثلةً في البلاغة والتضحية، وسجّلوا في أخبارهم أجملَ النوادر والقصص والطُّرف والأقاصيص خدمةً لكتاب الله .

وعليه، فلا عجب إنْ رأيتَ تراثهم الهائلَ المتراكم المتلاطم بعد قرن من الزمان تقريبًا يملأ السمع والبصر حين تفجرت الكتابة والتأليف والتصنيف في شتى العلوم الإنسانية والعلمية وقعّدو لكل علم وفن حينذاك في عصر بني العباس، ولا عجب إنْ رأيت فصاحةً وبلاغة انقطع نظيرها وقلّ مثيلها. إنهم تلاميذ محمّد بن عبدالله، ﷺ، في مدرسة القرآن والوحي.

أثرُ الحديث الشريف في اللغة

كان، ﷺ، أعذبَ الناس منطقًا، وأجملهم فصاحة، وأخلصهم لغة؛ لنشأته في بيئة مكّةَ وقبيلته قريش صاحبة تهذيب اللغة واللسان؛ فلسانه لسانهم، وحديثه من حديثهم، وألفاظه من ألفاظهم، ولّما نزلت عليه الرسالة آتت أُكلها ضعفين، وأينعت لغته فكانت على فصاحتها وعمقها وجمالها تجتذب قلوب المتلقّين.

وعلى الرّغم من ذلك، فإنّ بين كلامه، ﷺ، وكلام القرآن الكريم فرقًا واضحًا؛ فكلامه ليس معجزًا على الرّغم من عُلُوّه في البيان، حتى قال: "اختُصر لي الكلام اختصارًا"؛ وبذا فقد كان تأثير الحديث الشريف في عدّة نواحٍ، هي:

1 - استخدامه تراكيبَ لم تسمع إلا منه، ﷺ، مثل: يا خيلَ الله اركبي، لا تنتطح فيه عنزان، كلُّ الصيد في جوف الفرا، هُدْنة على دخن، وجماعة على أقذاء، لا يُلسع المؤمن من جُحر مرّتين، إنّ المُنبتّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى، العينان وكاء السَّه، جرح العجماء جبّار، الآنَ حَمِيَ الوطيس، بُعثت في نفس الساعة. حتى قال عليّ، رضي الله عنه: ما سمعتُ من العرب كلمة غريبة إلا وسمعتها من الرسول، ﷺ.

2- استخدامه بعض المصطلحات الشرعيّة؛ إذ قال، ﷺ، لبعض أصحابه: إيّاك والمخيلة، قال: يا رسول الله، نحن قوم عرب، فما المخيلة؟ قال: سبل الإزار. وقال عليّ، رضي الله عنه، وقد سمعه يخاطب وفد بني نَهْد: يا رسول الله، نحن بنوا أبٍ واحد ونراك تكلّم وفود العرب بما لا نفهم أكثره، فقال: "أدّبني ربّي فأحسن تأديبي".

3- أبقى على بعض لهجات العرب، ومنها قوله لوفدٍ من حمير – اليمن-: (ليس من امبر في امصيام في امسفر) حيث كانوا يستخدمون الميم بدلاً من أل التعريف

4- أحاديثه، ﷺ، وخطبه في الجمعة والعيدين، والخطب في مناسبات مخصوصة كالخسوف والكسوف وقبل معركة أحد وفي حادثة الأفك، وقد كان فيها من البيان

والفصاحة أعذب الجمل والتراكيب، ورُويت من أصحابه رضي الله عنهم حتى وضعت مؤلفات بعد ذلك في غريب الحديث، مثل: النهايّة لابن الأثير، والفائق لابن جني، ولعلك تجد في حديثه عذوبة وجمالاً قلّما يتوفّر في غيرها، فيُلمس فيها معدِنُ النبوّة ومشكاة النور الإلهيّ.

ويعود ذلك على الأدباء والشعراء والخطباء والمتحدّثين والكتّاب في تلمّس طريقه في الحديث والاستشهاد بأقواله وأحاديثه ومحاولة مشابهتها ومحاكاتها والنظم على أسلوبها ونمطها؛ فكان القرآن الكريم والحديث الشريف مقياسين ونمطين عظيمين يحاكيهما الشعراء والأدباء، وبقدر ما يقترب الشاعر أو الخطيب أو المتكلّم منهما بقدر ما يُعَدّ بليغًا رائعًا في أدبه وحديثه، فكانا نموذجين يحتذي الناس بهما، ممّا أفاد اللغة والأدب طرائق جديدة في أساليب الكلام وأفانين القول.

ولا نبالغ إذا قلنا إن القرآن الكريم والحديث الشريف بعثا اللغة من رقاد وأحيياها بعد موت، فإنهما وسّعا مدارك الشعراء والمتكلمين، وفتحا لهم أبوابًا من ضروب الكلام واللغة ، وأجريا نهراً من الصور البلاغية وآفاقاً من الدلالات اللغوية والمعنوية وأبعاداً عديدة من الإيحاءات والإشارات.

أثرُ الإسلام في العقل والتفكير

خاطب الإسلام العقل، ونبّهه من غفلةٍ أصابته بعد جمود، وأيقظته بعد رُقاد؛ فأول ما نبّهه إليه أنه إنسان عظيم من خلق الله وصنعه، وأنّ الكون سُخّر لأجله لكرامته على خالقه مخاطبهم قائلاً: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ (الغاشيّة) وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ لقمان

ولفت نظره إلى أساس رحلة وجوده من آدم، عليه السلام؛ فكلّ الخلق أبناؤه؛ وبذا أحيا فيه النظرة الإنسانيّة للكون والحياة، ثمّ ركّز على حقيقة وجوده، والهدف من ذلك؛إذ ليس الهدف الحياة بعينها بل ما هي له، وما تؤدّي إليه من حقيقة الفناء، حتى أخضعه وسيطر عليه بأسلوبه الرائع الراقي حين خلخل عقله وأيقظه بما تبلّد من إحساسه لطول الأُلف وجري العادة. وعندما أيقظ عقله من غفلته وسباته أخذ يشرح له كيف تكون الحياة، ونبّهه إلى كثير من العادات السيّئة والقبيحة التي جروا عليها وألفوها، وخاصّة أنهم كانوا أصحاب عقول وتأمّل، فأين عقولهم عندما يخضعون لعادة أو موروث أبديّ أو تأليهِ صنم وحجر يسجدون له؟ أين هي وهم ينظرون إلى العبيد نظرة الدّون، وإلى المرأة نظرة الازدراء وقد حملتهم تسعة أشهر في أحشائها وبين جنبيها؟ أين تفكيرهم وإنسانيّتهم وهم يئدون الوليدة؟

ثمّ ركّز على تسخير الكون لهم بما فيه من شمس وقمر ونجوم وبحار وأنهار، كلّها لأجلك أيها الإنسان، فأين أنت؟ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ

﴿مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٣ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٤﴾ (النحل).

بهذه الآيات وأمثالها في القرآن الكريم أعاده ليفكّر بنفسه، ويتأمّل في أنّ الذي خلقه قادر على إعادته نهايةً، فأين هو من ذلك؟ بل إنّ القرآن الكريم من قوّة تأثيره فيهم شغلهم بُرهة من الزمن في ما حدّثهم به من البدء، والإعادة، والخلق، والبعث، ثمّ أخذوا يتفكّرون، فمنهم من آمن، ومنهم من عاند وأنكر وكفر، وتركهم يتصارعون معَ أنفسهم، كلٌّ يعيد النظر ويجيل التفكير في ما جاءه من هذه الأفكار والآيات والبراهين علّه يتّعظ، ثمّ قصّ عليهم أنباء من سبقوا؛ ليريهم أنهم ليسوا أشدّ منهم، ولا أعزّ، ولا أكرم على الله منهم إنْ هم عاندوا وأنكروا.

وكان أثره في العقل أبلغَ وأشدّ من ذلك؛ فلقد قضى على الأساطير والخرافات والخُزعبلات المتعلّقة في نفوسهم وعقولهم، فلم يبق للخرافة أو الأسطورة وجود، فكلّ ما في الكون حقائق يجب أن تُدرس، أو يُنظر إليها، أو يُتفكّر فيها. وجعل العقل مناط التكليف، بل إنه مأمور بالتفكير والتأمّل والنظر؛ ليصل إلى حقيقة الخلق وعظمة الخالق، ثمّ فتح الباب على مصراعيه لاستعماله واستخدامه في ما يفيد الإنسانيّة والبشريّة.

وبذا انطلق العقل في مجاله وإبداعه وتفكيره، بحثًا ودراسة شملت جميع شؤون الحياة، ولا تصل إلى قرن من الزمان حتى تجد الأمة أخذت في الدراسة والتأليف في جميع مجالات العلوم والأبحاث نظرًا وبحثًا، فألّفوا فيها وكتبوا وناظروا وابتكروا وأضافوا إلى العلوم وجدّدوا، اصطبغت كلّها بصِبغة الإسلام وعلومه؛ خدمة لكتاب الله ورسالته نتيجة

للتراكم الثقافيّ والتفتّح العلميّ. فعمرُ بنُ عبدالعزيز أمر بترجمة كتب الطبّ، وبعض العلوم؛ وبذا حملهم القرآن الكريم على التفكير بطريقة علميّة صحيحة دقيقة.

وفي عهده، ﷺ، أرسل أحدَهم إلى اليمن لتعلّم صناعة السيوف، وأقام سوقًا تجارية في المدينة حين وصل إليها حتى تتحرر الأمة والمجتمع في المدينة من سيطرة يهود على السوق الإقتصادية، وأمر أصحابه بتعلّم لغات الآخرين ليسهل التفاهم معهم لما يُدْعون إلى دين الله، فأمر أُبيّ بن كعب بتعلّم اللغة السريانيّة.

وهكذا، تحوّل المجتمع إلى حياة جديدة، وطريقة فريدة في التفكير والتفنّن في أساليب العيش لم يكونوا عهدوها، فمن دخل في دين الله وجد نفسه وكأنه وُلد من جديد، فاستأنف دورًا آخرَ غيرَ الذي عهده من قبلُ.

ولّما كان العقل مناط التكليف، فإنّ التشريع حقّ لله وحده لا شريك له؛ لذا جعله؛ أي العقل، أساسًا في تلقّي أوامر الله ورسوله، وأعطاه حقّه من الحريّة في النظر والتأمّل، وجعل له ضوابطَ يقف عندها، فلا داعي لإعمال هذا العقل في ما لا طائل من ورائه، ولا ضرورة للتفكير في شيء لا تطيقه عقول البشر جميعًا، فكانت تلك الضوابط حراسة لعقله حتى لا يضلّ ويهلك.

ثمّ بعد ذلك أعطى الفرد حقّه والجماعة حقّها، وجعل لكلٍّ ضوابطَ وحدودًا؛ حتى لا يطغى هذا على ذاك، وفي المحصّلة كلّها تصبّ في معين واحد هو خدمة البشريّة، ومصلحة الإنسانيّة، ممّا يستنبطه العقل من نصوص التشريع، فسار الفرد والمجتمع جنبًا إلى جنب في تكامل بديع وتوافق منيع، كلٌّ له حقوقه وعليه واجباته.

ونتيجة لهذا التفكير الناضج، والفكر الراقي الرائع فقد ربّى القرآن الكريم أجيالاً متتابعة متعاقبة من الأمة الإسلاميّة، فلا نصل إلى العصر العباسيّ في بداية القرن الثاني

الهجريّ حتى نرى ثورة علميّة، وإنتاجًا ضخمًا، وحركة من التـأليف والإبـداع العلمـيّ في كلّ المجالات، قامت على قدم وساق، وكانت كلّها ثمرة من ثمرات نـزول القـرآن الكـريم ووجود العصر الإسلاميّ الأول والعصر الراشديّ.